

المسجد الجامع: قراءة في عناصر التأسيس

احميده النيفر
باحث تونسي



قسم الدراسات الدينية

المسجد الجامع: قراءة في عناصر التأسيس*

* قدمت هذه الورقة في ندوة "المؤسسة الدينية في الإسلام.. أي دور؟"، التي انعقدت في تونس العاصمة بتاريخ 29 و 30 نوفمبر 2014

الملخص:

ظلّ "المسجد الجامع" منذ البداية وطوال قرون البناء الاجتماعي الثقافي المركزي الأوّل في الاجتماع الإسلامي وأنه نتيجة طبيعته تلك قد عرف أطوارًا وتحوّلات عديدة آخرها ما نشاهده اليوم من حضور له بارز وإن بأشكال مختلفة في المشهد الاجتماعي والسياسي العربي والإسلامي.

ما نروم الإجابة عليه هو: أيّ قيم ساهم المسجد الجامع في تكريسها في مجال الفرد والمجال العامّ منذ تأسيسه؟ ما هي طبيعة المشروع الذي سعى إلى تكريسه المسجد الجامع في السياق التأسيسي وفيما أمكن الإبقاء عليه في العصور التالية؟ كيف ينبغي التعاطي مع هذه المؤسسة لنحدّد له الدور الذي تستدعيه عناصر الرسوخ فيه والذي يقتضيه المسار الحضاري المعاصر مع ما يميّز به من مظاهر التحوّل والتغيير؟

1- إضاءات استهلاكية

اخترت أن أتناول هذا الموضوع باعتبار أن المسجد الجامع ظل منذ البداية وطوال قرون البناء الثقافي المركزي الأول في الاجتماع الإسلامي وأنه نتيجة طبيعته تلك قد عرف أطواراً وتحولات عديدة آخرها ما نشاهده اليوم من حضور بارز وإن بأشكال مختلفة في الحياة العامة وفي المشهد الاجتماعي-السياسي العربي والإسلامي.

للدخول في الموضوع نقترح خمس إضاءات تضع أمامنا بصورة أولية البناء الديني الكبير بما يبرز خصوصيته المميزة التي أقيم عليها والتي نمت حولها الحياة الدينية والعلمية والاجتماعية منذ الانطلاق وفيما قام بعد ذلك من حواضر المسلمين مشرقاً ومغرباً.

1- شرع النبي (ص) بعد هجرته من مكة وهو في طريقه للاستقرار في المدينة ببناء مسجد فُباء ثم عند وصوله وبعد وقت قصير - أسبوعان - اختار أرضاً في المرصد بنى عليها المسجد النبوي ليكون مسجداً جامعاً. ما ينبغي التنبيه إليه أن أهل يثرب كان لهم مجمع هو سوق الجمعة وأن ذلك اليوم كان يتفق مع انعقاد مجلس القضاء في التقاليد العربية بالجزيرة. اتخذت للمسجد قبلة كانت متجهة نحو بيت المقدس آنذاك¹ وبلغ عدد المساجد التي بنيت في عهد النبي تسعة مساجد وكانت قد اتخذت في أكثرها إضافة إلى الصلاة محال للتعليم².

2- لم يختص المسجد النبوي بالصلاة والخطبة والتعليم بل هو إضافة إلى كونه مكان اجتماع المسلمين كان مجالاً مفتوحاً يتفاوض فيه الرسول مع وفود القبائل القادمة للمدينة مثل وفد "ثقيف" الذي ضربت له قبة في ناحية من المسجد لكي يسمع القرآن ويرى الناس يصلون وقد مكث الوفد يختلف إلى رسول الله يدعوهم إلى الإسلام³، وكذلك وفد بني تميم الذي دخل المسجد مطالباً مفاخرة الرسول خطابة وشعراً⁴. في المسجد نفسه

¹ كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يصلي حيث أدركته الصلاة بادئ الأمر، ولم يمض أسبوعان على وصوله حتى شرع في البحث عن مكان مناسب للبناء، واستقر رأيه على مرصد - وهو الموضع الذي يُجفّف فيه التمر - كان ملكاً لغلّامين يتيمين في المدينة يعيشان عند أسعد بن زرارة (ض)، وقال حينها: (هذا إن شاء الله المنزل) رواه البخاري. كان قد طلب النبي من سادات بني النجار الحضور ومعهم الغلامان ليعرض عليهم شراء تلك الأرض، وقال لهم: (يا بني النجار، ثامنوني بحائطكم هذا فقالوا: "لا والله لا نطلب ثمنه"، وقال الغلامان: "بل نهبه لك يا رسول الله"، إلا أن النبي أبى وعوّضهما بالثمن المناسب، رواه البخاري.

<http://articles.islamweb.net/media/index.php?page=article&lang=A&id=141673>

انظر أيضاً: E.I. art. Khutba Art.Khutba T.V Nile ed. pp.76-77.

² صحيفة همام بن منبه ص 6 تحقيق د. محمد حميد الله.

³ عروة بن مسعود الثقفي جاء إلى رسول الله بعد مرجعه من غزوة الطائف في ذي العقدة سنة 8هـ قبل أن يصل إلى المدينة، فأسلم عروة، ورجع إلى قومه، ودعاهم إلى الإسلام- وهو يظن أنهم بطيعون؛ لأنه كان سيداً مطاعاً في قومه، وكان أحب إليهم من أبنائهم- فلما دعاهم إلى الإسلام رموه بالنبل من كل وجه حتى قتلوه، ثم أقاموا بعد قتله شهراً، ثم انتمروا بينهم، ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب- الذين كانوا قد بايعوا وأسلموا- فأجمعوا أن يرسلوا رجلاً إلى رسول الله-، فكلّموا عبد ياليل بن عمرو، وعرضوا عليه ذلك فأبى، وخاف أن يصنعوا به إذا رجع مثل ما صنعوا بعروة، وقال: لست فاعلاً حتى ترسلوا معي رجلاً، فبعثوا معه رجلين من الأحلاف وثلاثة من بني مالك، فصاروا سنة فيهم عثمان بن العاص الثقفي، وكان أحدثهم سناً فلما

وقعت معالجة جرحى معركة أحد وفي مؤخرة المسجد كان يأوي المساكين من أهل الصفة⁵ وفيه قدم الأحباش بمناسبة يوم عيد عرضاً جماعياً لعبوا فيه بالدرق والحراب⁶.

3- ظلت المساجد الجامعة التي بنيت في الحواضر الكبرى التي استقر فيها المسلمون خارج الجزيرة مثل الكوفة والبصرة ودمشق والفسطاط تحتل المركز الجغرافي صلب تلك الحواضر بكل ما يحمله المركز من دلالة رمزية قوية للفرد والجماعة⁷. تواصل ذلك حتى بنيت بغداد (الزوراء - مدينة السلام) شمال مدينة بابل الأثرية في زمن المنصور العباسي بين عامي 145-147هـ/ 762-764 م فأصبح قصر الخليفة هو الذي يحتل المركز في المدينة.

4- في عاصمة الأندلس زمن الإمارة ثم في الخلافة ينتصب المسجد-الجامع في مواجهة باب "القنطرة"، الباب الرئيسي للمدينة وبمحاذاته شيد قصر الخلافة لا تفصله عن المسجد الجامع إلا الطريق الواسعة المعروفة بالمحجة العظمى. أما من الجهة الأخرى للجامع فتنتشر الأسواق على اختلاف أنواعها. هذا الموقع المركزي بين رمز السلطة السياسية من جهة وبين فضاء الحياة العامة اليومية من جهة أخرى يكشف طبيعة الموقع الذي يحتله المسجد الجامع في الفضاء العمومي وإزاء مؤسسة الحكم في المنظومة الأندلسية.

5- في قرطبة نجد أنّ المسجد الجامع كانت له إضافة إلى مهمته التعبدية والعلمية والقضائية مهام أخرى فقد كان محلّ بعض التظاهرات السياسية العامة. من أعلى المنبر كان صاحب الصلاة يقرأ رسائل الأمير المعلنة عن الانتصارات العسكرية ومن أحد أجنحته كان يتم توزيع الأولوية التي ترفعها الجيوش المتجهة لمحاربة العدو في الشمال. في المسجد الجامع نفسه كانت تُحفظ الأولوية بعد رجوع الجيوش وانقطاع الصوائف أو حملات الجهاد لمقاومة جيوش الفرنجة في الشمال. في رحاب الجامع نفسه تمّ اللقاء سنة 414 هـ/ 1024م

قدموا على رسول الله - ضرب عليهم قبة في ناحية المسجد، لكي يسمعوا القرآن، ويروا الناس إذ صلوا، ومكثوا يختلفون إلى رسول الله—وهو يدعوهم إلى الإسلام، حتى سأل رئيسهم أن يكتب لهم رسول الله - قضية صلح بينه وبين ثقيف، م في كتاب الأموال صفحة 247

⁴ قدم على النبي محمد في عام الوفود وفد بني تميم عليهم عطار بن حاجب بن زرارة بن عدس التميمي، في أشراف بني تميم، منهم الأقرع بن حابس التميمي، والزبرقان بن بدر التميمي، أحد بني سعد، وعمرو بن الأهم، والحباب بن يزيد. وفي وفد بني تميم نعيم بن يزيد، وقيس بن الحارث، وقيس بن عاصم، أخو بني سعد، في وفد عظيم من بني تميم. فلما دخل وفد بني تميم المسجد نادوا الرسول من وراء حجراته.

⁵ عن البخاري... وأهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد.

⁶ دعا الرسول (ص) السيدة عائشة (ض) أن تشاهد لعب الأحباش داخل المسجد وهم يقدمون عرضهم الجماعي الذي يتم فيه اللعب بالحراب وبالدرق قال: "تشتهين تنظرين؟ قلت: نعم. فأقمني وراءه، وهو يقول: "دونكم يا بني أرفدة" حتى إذا مللت قال: "حسبك؟ قلت: نعم. قال: "فأذهبي"" أخرج البخاري في صحيحه كتاب العيدين باب الحراب والدرق يوم العيد رقم الحديث 907

⁷ للمركز دلالة رمزية عالية ومركبة ففي علم النفس يدل المركز على الوجهة التي تتيح لنفسية الفرد أن تعتمد عليها لتتساقط طريقها خلال ما يبدو للـ"أنا" تداخلاً بين عناصر غير منظمة بما يجعل المركز طريقاً للخلاص ومحلاً للنجاة ورمزاً للتحويل. والمركز هو نقطة البدء والصدور وفيه يتجلى الخفي معبراً عن فرادته. في المنظور الديني لا يدل المركز على محل جغرافي بقدر ما يعبر عن موقع كوني تتركز فيه قوة روحية لذلك فهو مجال إشعاع وتواصل بين الخلق. من ثم يدل المركز على المجال الذي تتحول فيه الرؤية حيث ينتظم أمر العالم والذات. Encyclopédia Universalis, A-Dieu, p. 641

بين المرشّحين لخلافة الأمير قصد انتخاب أحدهم، وفي إحدى مقصورات الجامع يقع حفظ بيت المال وما يؤول إليه من مداخل الأوقاف.

ما نروم الإجابة عليه من خلال هذه المقاطع الاستهلاكية هو:

- أيّ قيم ساهم المسجد الجامع في تكريسها منذ تأسيسه في مجال الفرد والمجال العام؟
- ما هي طبيعة المشروع الذي سعى إلى تكريسه المسجد الجامع في منطلقه وفيما أمكن الإبقاء عليه في العصور التالية؟
- إلى أيّ حد يمكن اعتبار المسجد الجامع "مؤسسة دينية" وما هي عناصر الرسوخ والاستمرار التي تمكنه من ذلك وأيّ دور يقتضيه المسار الحضاري المعاصر مع اعتبار مظاهر التحول والتغيير القائمة في هذا المسار؟

II - المسجد وتشكّل الهوية

نبدأ بتأكيد مسألتين الأولى تاريخية والثانية منهجية لنصل منهما إلى الخاصية التأسيسية الأبرز في المسجد الجامع:

من جهة التوثيق التاريخي يجدر أن نذكر بأنّ الوعي بأزمة نظام المسجد الجامع ليست وليدة مستجدات حديثة وقريبة منّا. المسألة تتجاوز في مداها الزمني ما ظهر في العقد الأول للقرن الحادي والعشرين من أحداث عنف وتقتيل استهدفت عواصم العالم الإسلامي والغربي وكان الخطاب المسجدي كثيرًا ما يحمّل مسؤولية ذلك من خلال ما ينسب إليه من نشر لثقافة للعنف والتشديد. لكن الواقع هو أنّ المطالبة بمراجعات جذرية للخطاب الديني السائد عمومًا ولمكانة المسجد الجامع وتراثيه وما يتأسس عليه من معرفة وتصورات ونظم خصوصًا، هذه المطالبة قد بدأت منذ ثمانينات القرن الماضي في تونس ومصر والجزائر والمغرب وغيرها دون أن يجد ذلك صدى أو تأثيرًا.

في هذا الصدد تنبغي الإشارة إلى ما وقع القيام به في تونس بخصوص نظام المسجد الجامع من خلال كتابات نقدية ومطالبات عديدة ومحاولات عملية ظلت دون جدوى بل سرعان ما انتهت بالتقويض الذي فرضته الأوضاع السياسية التي عرفت تونس في تسعينات القرن المنصرم.

في الفترة ذاتها تصدى لخصوص هذا الموضوع الكاتب الليبي الراحل "الصادق النهوم" في كتابه "الإسلام في الأسر: من سرق الجامع؟ وأين ذهب يوم الجمعة؟"

في هذا الكتاب⁸ نقرأ بالخصوص تعاطياً مع الموضوع بصورة واضحة وجريئة يقول "في المسجد أو خارجه، يستطيع المسلم أن يؤدي فريضة الصلاة. فالإسلام يعتبر الكرة الأرضية بأسرها مسجداً مفتوحاً للخلوة مع الله. لكن ثمة فرائض أخرى لا يستطيع المسلم أن يؤديها إلا في مؤتمر إداري خاص، له سلطة أعلى من سلطة الدولة، ومسؤول إدارياً عن صياغة القوانين... فالجامع ليس هو المسجد. وليس مدرسة لتلقين علوم الدين، بل جهاز إداري مسؤول عن تسيير إداري جماعي".

ما نريد أن نلفت إليه النظر من خلال هذه المسألة الأولى هو أنّ السؤال الذي خامر المراجعين لنظام المسجد منذ عقود هو: كيف استتبع المسجد الجامع قديماً وحديثاً ولماذا وكيف ينبغي تحريره من القوى المختلفة العاملة على تهميشه وتوظيفه؟

بعد هذه الإشارة للمسألة في بعدها التاريخي يتأكد تحديد المقصود بالتأسيس الذي نروم ضبطه في تاريخ نظام المسجد الجامع.

غابتنا من البحث في مفهوم التأسيس هي الوقوف على العناصر المبدئية الراسخة في بناء المسجد الجامع والتي تمثل طاقاته الكامنة التي تسمح له أن يواكب مقتضيات العصور وتغيرات الواقع. مقتضى مفهوم "التأسيس" منهجياً هو الاستحضار الواعي للموروث في النظام المسجدي الجامع والاعتبار به وفقاً لما انتهى إليه الوعي الإنساني الراهن لكون الخبرة البشرية-سواء في التاريخ أو في الزمن الحاضر-تعين على فهم دلالة التأسيس ومستوى التعبير والتي تتكشف في ظل واقع إنساني وتحولات مجتمعية معقدة.

ليس في التأسيس، إذن، نكوص إلى الماضي الصرف أو انغلاق على الذات أو حنين لـ"عصر ذهبي" قصد الاحتماء فيه، بل التأسيس استفادة من التجربة التاريخية بما يوفر حظوظاً لخوض غمار تجارب جديدة تنهل من الوعي الكلي لتلك التجربة الممتدة بما يتيح استنبات ما يقع تخيره في تربة الواقع المعيش، بحكم المنطق الشامل الذي يحكم المؤسسة والذي تستطيع بمقتضاه أن تتسع وتنمو.

التأسيس بذلك ليس نقيض المعاصرة التي يقابلها الاغتراب الذي يحول دون التجديد والابتكار إنما التأسيس انغراس في عناصر تميز النظام المسجدي في عصر المتغيرات وتمثّل لما خضعت له من تحولات

⁸ صدرت طبعة أولى للكتاب عن دار رياض الريس في لندن سنة 1991

المجتمع وتجاربه في مختلف أطواره الحضارية، وما تعبر عنه خلالها محاولات التطور أو التراجع عبر مسيرته التاريخية.

في كلمة، التأسيس المقصود ليس تكراراً أو نسخاً أو جموداً بل هو اعتماد للنسخ الذي تخلّق في لحظات البناء الأولى وما تلاها والذي مكّن من النمو والاندفاع بتجارب الذات والذي يمكّن من أن يعلو بالوعي الكلي والفاعلية في التاريخ.

بناء على اتضاح هذين المعنيين يمكن أن نتناول الآن القواعد البنوية التي عمل على تركيزها المسجد الجامع في لحظاته الكبرى ضمن اجتماع ناشئ كان نظام المسجد الجامع واحداً من أهم مصادر تميّزه وديناميكيته.

في هذا الخصوص نبدأ بخبر دال وارد في أكثر من مصدر عن تاريخ اجتماع قريش في مكة حول الكعبة قبل ظهور الإسلام بعقود قليلة.

خلاصة ما يرويه ابن اسحاق أنّ أربعة من أعيان قريش اجتمعوا في مكة في القرن السادس الميلادي ونظروا فيما آلت إليه حال قومهم من تشرذم وانقسام. توقفوا عند تعدد الأصنام في مكة وتنوع الصفقات التجارية فيها وكثرة الأحلاف والأحزاب داخل جسم قريش الذي كان من قبل واحداً فكان حلف المطيّبين⁹ وحلف الفضول¹⁰ بما أفضى إلى انخرام جذر الاجتماع الذي كان يحقق لقريش البقاء ومواجهة المصاعب المتزايدة. لقد تبين أنّ الجماعة القرشية فقدت جوهر اجتماعها الذي كان البيت العتيق رمزاً له ومرجعاً موحداً يستندون إليه. إنهم أضحوا وقومهم وليس لهم ما يرأب صدوعهم ويتصدى لانقساماتهم المتفاقمة.

لذلك انتهى التشخيص إلى أنّ قريش "ليست على شيء" بعد أن غادرت عمل قصي بن كلاب بن مرة الذي جمع شملها منتزعاً من كنانة وخزاعة زعامة مكة أواخر القرن الرابع وفارضاً السيطرة عليها¹¹.

ما نستفيده من هذا الخبر أنّ المؤسسة القبلية في مكة قبيل ظهور الإسلام وقيل بناء المسجد الجامع كانت قد بلغت حالة من العجز والانقسام وفقدان الفاعلية نتيجة الانحراف عن التقليد التوحيدي الإبراهيمي الذي عملت

⁹ حلف المطيّبين هو حلف بين أفضاخ من قبيلة قريش قبل الإسلام لإعانة بني عبد مناف على أخذ ما جعله قصي بن كلاب لبني عبد الدار من الحجابة واللواء والسقاية والرفادة.

¹⁰ حلف الفضول هو أحد أحلاف الجاهلية التي شهدتها قريش وشهدها الرسول لدعم المظلوم على الظالم.

¹¹ قصي بن كلاب بن مرة (480-400م) هو الجد الثاني لشيبه بن هاشم المشهور باسم عبد المطلب، وهو الجد الرابع للنبي محمد. حصل على نفوذ واسع في مكة. ويعتبر أشهر رئيس في قبيلة قريش في عصر ما قبل الإسلام وجعل سكنى مكة خاصة لقريش. وكانت إليه السدانة والسقاية والرفادة والندوة ولواء الحرب، انظر سيرة ابن هشام 132/1 وتاريخ الطبري 1095/1 والبداية والنهاية 201/2 وتاج العروس مادة ق رش وجمهرة الأمثال للعسكري 414/2 والأوائل له 14-11/1

على تركيزه الكعبة، وأنّ هذا بالذات ما سيعمل المسجد الجامع على بنائه ضمن منظور مغاير لما انتهى إليه المنظور القبلي القديم.

مؤدى ذلك أنّ المسجد الجامع كان المكان المميز للعبادة الجماعية حقق به تغييراً جوهرياً في عمق البناء الديني المتداول آنذاك قام على منظور توحيدي¹². لقد كان تجاوزاً لمخاض "ثقافي" هائل كان يعتل في مكة وفي القرى التي من حولها بإرساء حياة دينية وروحية لا صلة لها بما كان يعرفه المشركون في عباداتهم وتصوراتهم وهم الذين لم يروا سبباً لوجود هذا العالم إلا "الطبع المحيي والدهر المفني". كان المسجد الجامع يقطع مع ضيق القول "ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر"¹³ بتوسيع مدى الحياة وإغناء معناها.

الجديد في هذه الحياة الدينية اعتمادها عقيدة التوحيد في تصور العالم والحياة والإنسان مما يجعل قاعدة الانتساب وعنصر الولاء وأساس الهوية مرجعاً دينياً من خارج المجال القبلي الذي استنفذ أغراضه ويتساوى الجميع في ظله فيوحد ويضبط ويشرّع. التوحيد بذلك يصبح أساس الإيمان وقاعدة ثقافة لاجتماع جديد يمكن من التغلب على مصاعب السياق القديم الذي تبين لرجالات قريش أنهم لم يعودوا "على شيء" يشرّع لتجمعهم بمكة كما كان الأمر منذ أواخر القرن الرابع الميلادي على يد قصي الجد الجامع.

ببناء المسجد الجامع غادرت قريش مفترق طرق تاريخي بعد أن أضحي حضور البيت العتيق شكلاً غامضاً لا يستطيع أن يرقى إلى أن يصبح رمزاً حاضراً وموجداً وجذراً يسوّغ الاجتماع ويؤسسه بحيث يمكنه من الاستمرار.

هذا ما أدركه الحنفاء من تحول الأوضاع وما بلغت حالة مكة من تردٍ جعلها على مفترق طرق. لقد أصبحت مكة في حال يتطلب تحولاً نوعياً تغدو معه أمماً للقرى لها جذر موحد فكانت النبوة وكان التوحيد وكانت المدينة.

¹² ما يفيد خبر ابن اسحاق هو أنّ مجموعة صغيرة من قريش اكتشفت أنّ بنيان قصي مهدد بالانهيار بسبب استمرار انحراف خزاعة الذي انطلق بالخروج على الحنيفة أي على دين إبراهيم على يد عمرو بن لحيّ أبو خزاعة. كان عمرو أول من ولي البيت منهم وإليه يرجع إدخال هبل من الشام ودعوته الناس إلى عبادته فكانت مفارقة الحنيفة: انظر ابن الكلبي، كتاب الأضنام وسيرة ابن هشام 79/1 وصحيح البخاري مناقب 9/ والعسكري في الأوائل) انظر السهيلي الروض الأنف المجلد الأول والثاني والأزرق، تاريخ مكة وتاريخ الطبري 966/1 وأحمد إبراهيم الشريف مكة والمدينة في عهد الرسول دار الفكر العربي القاهرة 1965

¹³ سورة الجاثية 24/45

مع المسجد الجامع تمّ تنافذ بين العقيدة التوحيدية ومستلزمات مجتمع متحفز للنهوض أتاح لمكة أن تغدو أم القرى بظهور الجماعة المتميزة التي تبلورت منظومتها شيئاً فشيئاً وصار لها الجذر الموحد القادر على تحديد موقف من القضايا داخل الجماعة وخارجها¹⁴.

III - مؤسسة للتوازات الكبرى

عمل المسجد الجامع عند انطلاقه على صياغة هوية جديدة للمؤمن تحددت معالمها في "يثرب" التي أصبحت "المدينة" المؤسسة على العقيدة التوحيدية التي قطعت مع الشرك في مستوى النظر والتصور منهية تشتت ذهن الجاهلي وعدم قدرته على توحيد عناصر العالم والتفكير فيها بطريقة تجريدية مسددة.

تحددت سمات هذه الهوية الجديدة في أربعة مستويات رئيسية:

في مستوى أول لم يعد الزمن، كما كان الشأن في التصور الوثني، المسرح الفسيح للعودة للأبدية باعتبار أن الوجود الإنساني مؤقت وأنه مرتهن بحتميات قاهرة.

في مستوى ثان كانت العقيدة التوحيدية تحمياً لمسئولية الفرد في الحياة وتدريباً على تحمّل أعباء مصيره باعتباره يعيش تجربة وجودية يكتشف فيها المؤمن ذاته ويعي بها وبالعالم وبالخالق في الوقت نفسه.

في مستوى ثالث حقق التوحيد تحولاً نوعياً في مفهوم الإدراك (Perception) الذي لا يبقى مجرد "استقبال العالم المائل أمام الحواس" بل يصبح تضافراً لعمل جملة من الحواس، يقتضي خاصة عملاً انتقائياً وتصنيفياً يقوم به الإنسان المدرك الموحد. بهذا يتحول الإدراك أساساً للوعي الذي يضحى أحد عناوين العقيدة التوحيدية بما تستدعيه من العناصر الحسية والنفسية والتقييمية المفضية إلى تأويل وقراءة في اتجاه واحد يسمح باتخاذ قرار ينبني عليه تصرف محدد¹⁵.

¹⁴ رضوان السيد، مفاهيم الجماعات في الإسلام، دار التنوير بيروت ط1-1984

¹⁵ لا يكفي أن نفتح أعيننا أو أن نصغي حتى نرى أو نسمع ما يحيط بنا من مظاهر العالم وكنوزه. الإدراك يقتضي عملية فرز معقدة لأنّ الدماغ البشري يتلقى معلومات عديدة مقطعة عبر وسائط إدراكية وحسية عما يحيط بالإنسان وما يعتمل في داخله ليقوم بتمثّل موحد لها. هذا ما يفسر ظاهرة الاختلاف الواضح بين قراءات إدراكية متباينة لأنّ كل إدراك هو خلاصة عمل بنائي يتمثّل واقعاً محدّداً لكنه يختلف عن ذلك الواقع لكونه يرتبط بصورة مؤكدة بحاجيات الإنسان المدرك وميوله وغاياته وخبراته. في كلمة، الإدراك عند الإنسان عمل موحد من جهة لكنه يعبر في ذات الوقت عن ثراء العالم الإنساني بما يوفره من إمكان التعدد في قراءة الواقع وإدراك عناصره بين مختلف الأفراد مما يفتح الباب إلى الاكتشاف والتطور. انظر: Alain Berthoz dans Physiologie de la perception et de l'action; Anne Hervé Minvielle dans Perception construction mentale de la réalité.

ثم كان التوحيد في مستوى رابع ارتقاء بالوعي الفردي ليكون منتجاً للتضامن الاجتماعي وهذا عين ما عمل على تركيزه المسجد الجامع، لأنه عمل على تجسيد مفهوم الأمة تلك الجماعة المسؤولة عن حياتها ومصيرها والتي تعمل على أن تتحرر من التقسيمات المصطنعة والظرفية.

بهذا استطاع نظام المسجد الجامع من خلال العقيدة التوحيدية أن يكون صانعاً لسردية¹⁶ مؤثرة عاملة على تحويل التجمع الكيفي من الناس إلى مجموعة منظمة وقادرة على التأثير من خلال ما تتوفر عليه من فهم مشترك للغايات والأدوات ومن خلال بلورة مفهوم مغاير للـ "نحن". هكذا غدا المسجد الجامع تأسيساً لفاعلية حضارية فردية وجماعية التي هي شرط لأي اجتماع فاعل منشود.

لذلك نجد القرآن الكريم يدعو إلى يوم الجمعة معتبراً أن كل من يتخلف عنه آثم وأن الانشغال عنه بالتجارة ليس عذراً، بل اعتبر أن لهذا الاجتماع أولوية على كل شيء حتى على كسب الرزق. ذلك ما يتيح القول إن المسجد الجامع كان مؤسسة كبرى لها رؤية جديدة غير ثبوتية للعالم وللجماعات ترفض بعقيدتها التوحيدية الموقف العدمي من التاريخ وتصوغ واقعاً متجدداً.

توكيدا لهذه القيمة نجد أن آية "وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً" فيها توجّه إلى التنزيه المتعالي بما يفتح الباب ليكون المسجد معلماً لتأسيس مزدوج بين العقيدة والحضارة، بين الفكر والواقع، بين الفرد والجماعة، بين الإدراك والوعي، بين الثبات والحركة.

الدعوة أن تكون المساجد لله تمكين لمؤسسة المسجد الجامع من جعل عقيدة التوحيد مبدأ قابلاً للتنفيذ من خلال مجتمع واع بخصائصه وبطبيعة العلاقات التي تحكمه ومقتدر على التوصل إلى الحلول الجديدة التي تستند عليها حياته الجمعية. من هنا صحّ أن نقول إن المؤسسة المسجدية هي التي تكتشف بها الجماعة ذاتها من خلال الربط بين دلالات عقيدة التوحيد وما تتيحه من تفعيل طاقات "الأمة" بدفعها المنظومة المجتمعية للتحرر وبناء واقع مغاير وأكثر رقياً.

مراجعة الخطب النبوية في ضوء هذا التوجه الديناميكي تبين هذا التركيب بين الاجتماعي والثقافي، تركيب فيه تقويض وتعويض للنسق القبلي القديم الذي أثبتت الصراعات والمناكفات عجزه.

¹⁶ تقوم السردية على أربعة عناصر أساسية: من نحن؟ ماذا نريد؟ كيف يمكن تحقيق ما نريد؟ ومتى يجب البدء بالعمل؟ والاختلاف في أي من الإجابات تنجم عنه سردية جديدة تعمل على تأسيس هوية جديدة متفردة عما سواها، الأمر الذي يؤدي إلى تعدد في المجموعات والهويات في المجتمع كما يعد أحد الأسباب المفسرة لتنشيط الجماعات وانشطارها بعد نشأتها.

في تلك المرحلة التأسيسية كان لا بد للمسجد الجامع من إبراز هذه الديناميكية التركيبية بين البعد الديني الإيماني وبين الجانب الثقافي الاجتماعي الذي اهتم به بعض المؤرخين المعننين بالعوامل المؤسسة للجماعة في الإسلام.

هذا ما تؤكد روايات وردت في سيرة ابن هشام وغيره تسمح لنا بالقول إنّ الروابط القبلية والثقافية والدينية التي أرساها "قُصَيّ" الجدّ الجامع لقريش أو آخر القرن الرابع الميلادي بعد أن انتزع من خزاعة زعامة مكة أضحت بعد قرنين عاجزة عن تحقيق الانضواء والبقاء ومواجهة المصاعب المتزايدة.

لذلك كان المسجد الجامع الأول في المدينة جانبه الثقافي / أو الحضاري - الاجتماعي منطلق تأسيس جديد للهوية الجامعة. هوية تظل رابطة لأطراف الجماعة مركبة بين مصالحها وتوجهاتها متجهة بها صوب آفاق أرحب وأقدر على مواجهة صعابها باعتبار أنّ عقيدة التوحيد التي تستمد منها شرعيتها تعني في مستوى العيش والحضارة التعدد والاختلاف أي ضرورة التدبير والاجتهاد وتحمل المسؤولية.

بعد ذلك تواصلت منظومة توازنات المرحلة التأسيسية بدرجات متفاوتة في النجاح لكنها شهدت أقداراً من التراجع ضمن هذا البناء المنظومي أدت إلى هيمنة الفكر الأحادي الثبوتي في الخطاب المسجدي بما أعجز الوعي الجمعي عن كل تحرر ومراجعة. في تلك الظروف انحسرت الهوية إلى حدودها الدنيا ضمن ذهنية ترى في الهوية والحضارة جوهرًا ثابتًا وبنية قارّة، ذهنية تختزل ما تحمله الهوية من تنوع الأبعاد وتجدد الفاعلية. عندئذ جاء الانتكاس على طور التأسيس، انتكاسٌ رافض لأيّ تبديل أو تغيير في الأفكار والمؤسسات والمناهج.

١٧ - خلاصة

بالعودة إلى أسئلة الانطلاق الثلاثة المتعلقة بالقيم التي ساهم المسجد الجامع في تكريسها في طور تأسيسه وفي طبيعة المشروع الذي سعى إلى إقامته وإلى أي حد يمكن اعتبار المسجد الجامع "مؤسسة دينية" قابلة أن تؤدي مهام حضارية اليوم نتبين لنا ابتداء الملاحظتان التاليتان:

- أولاً أثبت المسجد الجامع منذ بنائه جانباً رئيسياً من مقومات المؤسسة الكبرى من خلال ما توفر لديه بصورة تدريجية من نظام مستقل متمثل في هيئة ونظام تلتقي فيه عدة أجزاء وترتيب ينتظمها نسق ومضمون وجملة من القيم بما حقق غايات اجتماعية ذات دلالة حضارية اجتماعية سياسية وبما يفيد بناؤه من معاني الثبات وقابلية الحركة.

- **ثانياً** عمل المسجد الجامع عند تأسيسه على أن يكون مؤدى نزعة التعالي الدينية التي تميز بها عمله وخطابه هو التوصل إلى إقامة توازنات كبرى تفضي إلى قدر من التناضح يجنب المجتمع أخطر الأشكال الانفجارية للعلاقات الاجتماعية. بذلك غدا الدين ضمن رسالة المسجد الجامع العامل الأساسي في بناء النظام الاجتماعي والتقدم المدني من خلال ما تميّز به خاصة في مجال رؤية العالم وممارسة أخلاقيات جديدة في إدارة الشأن العام.

- ما تنتهي إليه الملاحظتان هو أنّ أولى العناصر المبدئية الراسخة في المسجد الجامع التي خولت أن يكون له دور مؤسسي هو **استقلاله واجتماعيته**. بهما زواج بين العقيدة والحضارة من خلال ما أتاحه من **تشكل مغاير للهوية الجامعة** معبراً بذلك عن يقظة العقل الاجتماعي الدائم التحفز والساعي إلى التطوير والتمدن.

- يتمثل العنصر الثاني في أنّ **مركزية** مؤسسة المسجد الجامع التي وإن بدت في أكثر من مرحلة من المراحل التاريخية تسلطية ودغمائية مما سبب لها في فترات عديدة تاريخية ومعاصرة الانحراف والتهميش بما عطل **وظيفتها الحضارية الجامعة**، فإنّ المرحلة التأسيسية الأولى تعينت فيها تلك المركزية قيمةً **رمزية** خصوصيتها أنّها أداة للتواصل وتعبير مكثف عن الإحساس ومصدر للإبداع الخلقى.

- أما العنصر الثالث والأخير وتبعاً لما سبق فإنّ الصبغة المؤسسية للمسجد الجامع تعني أنّه كان يجسد بصورة عملية **الحدث المركزي** الذي كان يتبناه مجتمع ما عن **مفهوم للدين والوجود ومعنى الحياة**. في هذا كان الخطاب المؤسس يعتبر الدين إيماناً بمصير الإنسان الذي يريد أن يصنع المعنى والذي يعمل بالانضواء الحر في الجماعة قصد التغلب على محدوديته وقصوره عن إدراك الحقيقة الكلية. بهذا كانت رسالة المسجد الجامع في مرحلة التأسيس هي تحفيز المؤمن الساعي لاكتشاف رتبته في سلم الموجودات من خلال فهم للحياة بأنّها حركة وحقيقة حيوية تستدعي تحملاً واعياً لأثقال الماضي في المجال الاجتماعي السياسي والفكري وتطوراً بتلك الحركة دون أن يصبح الوجود تطوراً صرفاً بل اعتبار أنّه حامل لعناصر تنزع للبقاء والاستمرار.

في كلمة أخيرة وباستعادة ما سبق أن ذكرناه من تأليف "الصادق النهوم" عن سرق الجامع وأين ذهب يوم الجمعة؟ نرى اختزالاً لكل ما قدمنا القول: إنّ الأصوب هو السؤال عن لماذا وقع هذا الانحراف التاريخي لمؤسسة المسجد الجامع؟ والجواب الذي نتقدم به هو أنّ استتباع المسجد الجامع جاء من عدم **"تكامل الدين والمدنية"** في الخطاب والمواقف والعمل في حين أنّ قوام المشروع الذي سعى إلى تكريسه المسجد الجامع في منطلقه لم يكن سوى هذا التكامل الذي ينجزه وعي الإنسان المؤمن.



MominounWithoutBorders



@ Mominoun_sm



Mominoun

الرباط - المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com